ثقافة أبي العـــلاء

للأســـتاذ دريني خشبة

لم يحى أحد من الشعراء حياة صـدق صريح لا مواربة فيه ولا خداع كما حيي أبو العلاء ... ولم تـكن حياة أحد قصيدة من الشعر المـكلوم المـكتوم الحزين الباكي الناقم كما كانت حياة أبي العلاء ... ولم يعبس أحد للحياة تلك العبوسة الطويلة المظلمة التي غبرت ثمانين عاماً ، كما عبس هذا التنوخي أحمد بن عبد الله ابن سليمان ، آكل البُـلْسُن والبَـاس[1]؟ ولم يثقف شاعر نفسه بكل ما استطاع أن يثقفها به ممـا وصلت إليه يده وقدرته كما فعل المعري ؛ ولم يأخذ أحد نفسه بما أخذها به أبو العلاء من شدة وجد وصرامة ، فقد عاش طول حياته منطوياً على نفسه ، عزوفا عن الناس ، نباتياً لا يذوق اللحم ، صوّاما لا يفطر إلا في العيدين كما يحدثنا الأستاذ متز[2]، مستعلياً عما فطرنا الله عليه من حياة وتناسل ، حابساً نفسه في مائة سجن من شذوذه الذي يصادفك في كل شيء ... في شعره وفي نثره وفي أخباره وفي ثقافاته وفي اختلاف الناس فيه ... والسجن المؤبد في العرف الحديث هو ما زاد على العشرين عاما ، إلا أننا لم نسمع عن سجن مؤبد زاد على الخمسين إلا في حياة أبي العلاء ، وكان مع ذلك سجناً اختيارياً حبس الشاعر فيه نفسه عن طواعية ... فلم يضق به ... ولم يزور عنه ، ولم يشك منه لمخلوق ، بل كان له وفياً ، وبه حفياً .

أراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ، ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسم الخبيث

(١) العدس والتين ، وفيهما يقول أبو العلاء :

يقنعني بلس يمارس لي ... فان أعتقي حلاوة قبلس
فلس ما اخترت إن أروح من ... يسار قارون عفة وفلس

(اللزوميات ج ٢ ص ٥٥)

(٢) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١١٠

وإذا قال لنا المعري إن سجونه كانت ثلاثة فهو يقول هذا تجوّزا ، لأنه دعا نفسه رهين المحبسـين ، وهو في الحقيقة رهين مائة محبس أو تزيد ... فالمعري لا يلقاك إلا في سجن ، ولا يحدثك إلا في سجن ، ولا يسخر بك ويستهزئ منك إلا في سجن ، لأن كل عادة من عاداته سجن ، وكل طبع من طباعه سجن . وهو يفنّنُ في ابتكار السجون التي كان مأخوذاً بحبس نفسه فيها . فأنت تقرأه في الفصول والغايات فلا تفهمه ، ولا تعرف ماذا يريد أن يقول ، لأنه يختبئ منك وراء جدران سجنه الغليظة السميكة التي بالغ أشد المبالغة في غلظها وجعلها سميكة ، لأنه تعمد ذلك ، وسعى إليه ... إنه لا يريد أن تفهمه في سهولة ويسر كما تفهم سائر الناس ... لأنه ليس كسائر الناس ... وأنت كذلك تقرأه في لزومياته فيخيل لك الغرور أنك تفهمه ، مع أنك لا تفهم مما يقول شيئاً ... إنه يختبئ منك ويستخفي وراء سجن يشبه هذا الجحيم الذي صوره في رسالة غفرانه ... سجن كله دركات مثل دركات جهنم ، من فـكرة في صدر البيت ، تنفيها فـكرة في العجز ، ومن رأي في البيت الأول يضربه رأي في البيت الثاني ، ومن عقيدة في هـذه القصيدة تلطمها عقيدة أخرى في التي تليها ... كل ذلك في ألفاظ خبيثة يخيل إليك أنها حوشية . ألفاظ تـكاد تصرفك عن قراءة هذا الذي سماه أبو العلاء شعراً ، وما هو في نظرك بشعر ... بل هو في نظرك كلام لا ينتمي إلى اللغة العربية التي عرفها الناس لغة راقصة ضاحكة طروبا ... لا لغة عبوساً متجهمة تجهم تلك الثاكل التي وقفت بشاطئ اليم تبكي بنيها الذين ابتلعتهم لجته ، ولا يلفظهم عُبابه !!

ثم أنت تقرأه في رسائله الـكثيرة المطبوعة التي نفحني عمي — شفاه الله وأطال بقاءه —[1] بنسخة منها منذ أكثر من ربع قرن فلم أعن بقراءتها إلا حينما سمعت الناس يلغطون بذكر أبي العلاء ، ويملأون الدنيا ضجيجاً فرحين بعيده الألفي . فلا تـكاد تفهم سطراً مما يقول ، ولا تـكاد تعرف فحوى رسالة

(١) أعتذر عن هذا الحديث الشخصي الذي ساقني إليه شجون القول

واحدة من تلك الرسائل الكثيرة التي كان يرد بها على مناظريه ، فيلجمهم ، ويخرسهم أبد الدهر ...

فما هذا كله الذي جشم أبو العلاء نفسه من وعورة الألفاظ والتراكيب ؟ وما تصيُّدُه ذاك كله لشوارد الكلمات وأوابدها ، إن صح أن تكون في الكلمات أوابد ! يجب أن تلتمس العلل والأسباب لتلك القيود التي قيد بها أبو العلاء قراءه ... ولم يتقيد هو منها بشيء كما يقوم الكثيرون ...

إذن ، فقد نشأ أبو العلاء بمعرة النعمان في أسرة من الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء والقضاة وسراة الناس ... جدوده قضاة وعلماء ، وأعمامه قضاة وعلماء وشعراء ، وأبوه قاض شاعر رقيق الديباجة اسمه أبو محمد عبد الله ؛ وقد أعطانا ياقوت الحموي في معجمه (ج ٣ ص ١٠٩ — دار المأمون) نموذجا من شعره في رثاء أبيه ، جد أبي العلاء ، حيث يقول :

إن كان أصبح من أهواه مُطرحاً
ببابِ حمص فما حزني بمطرح
لو بان أيسر ما أخفيه من جزع
لمات أكثر أعدائي من الفرح

ثم أخوه قاض عالم ، وفقيه شاعر ، ولي القضاء بعد أبيه ، واسمه أبو المجد ، وكان أكبر من أبي العلاء سناً ، وقد أثبت لنا الحموي نموذجاً رائعاً من شعره في الزهد ، يبين لنا إحدى وشائج النسب في الأدب بين الأخوين الشقيقين ، إذ يقول :

كرم المهيمن منتهى أملي ... لا نيتي أجر ولا عملي
يا مفضلا جلت فواضله ... عن بُغيتي حتى انقضى أجلي
كم قد أفضت علي من نعم ... كم قد سترت علي من زلل
إن لم يكن لي ما ألوذ به ... يوم الحساب فإن عفوك لي

فهذا شعر جيد نجد له أصداء كثيرة في اللزوميات ، ولا عجب أن يكون للأخ الأديب أثر في أخيه الأديب . ولأبي العلاء أخ شقيق آخر ، كان يكثر من أشعار الغزل ، اسمه أبو الهيثم ، ومن شعره في الشمعة :

وذات لون كلوني في تغيره ... وأدمع كدموعي في تحدرها
سهرت ليلي وباتت لي مسهرة ... كأن ناظرها في قلب مسهرها

ثم يعدُّ لنا ياقوت أسماء كثيرة لامعة من أسرة أبي العلاء كانت تشتهر بالفقه والعلم والأدب والشعر ... لكنه يحصيها كلها من أسرة أبيه ، ولا يذكر لنا اسما واحداً من أسرة والدته ، فيستدرك ذلك الميمني في كتابه «أبو العلاء وما إليه» فيسرد لنا أسماء كثيرين من أخوال أبي العلاء الذين مدحهم وذكر أياديهم عليه في كثير من شعره الوارد في ديوانه «سقط الزند» مما يدل على حفظه لجميلهم وشكرانه لهم بعد وفاة أبيه وهو في الرابعة عشرة من عمره ... ويصيب التاريخ خرس شديد في هذه المرحلة الحزينة من مراحل سني أبي العلاء ، فهو لم يحدثنا بشيء عن صلة أبي العلاء بأخوته أو عمومته أو بني عمومته بعد تلك الكارثة التي كانت أشد وبالا عليه من العمى الذي أصابه في الرابعة من عمره ... وهو لم يذكر لنا إذا ما كان أحد من أخوانه كان لا يزال حياً يرزق بعد وفاة هذا الوالد البار الذي كان يولي أبا العلاء من عطفه وبره وعلمه بما ينسيه فقدان بصره ... أو ماذا كانت العلة في ترك أبي العلاء وشأنه ينفق عليه أخواله حتى في رحلته إلى حلب ، وإلى أنطاكية ، وإلى اللاذقية وطرابلس ، طلباً للعلم ، واكتساباً للأدب ، وتفقها في اللغة ، على العلماء والأدباء وفي دور الكتب ؟ حتى رحلته إلى بغداد كانت على نفقة أخواله ، كما يحدثنا بذلك الميمني ، وكما يشير إليه الدكتور طه حسين في «ذكرى أبي العلاء» ... ولكن أحداً لا يحدثنا عن علة انصال المعري بأخواله هذا الاتصال الحبيب العجيب ، ثم انصرافه عن أخوته وعمومته ... وليس معقولا أن تكون المحبة الطبيعية بين بني البطون وحدها سبب ذلك ، وما يكون من عداوة بين بني الظهور .. لن يكون هذا سبباً كافياً ولا معقولا أبداً ...

إن والد أبي العلاء لم يترك له ثروة تذكر ... وكان كل دخله ثلاثين ديناراً يغلها له أحد الأوقاف من أسرته لأبيه ، كان يدفع منها نصفها لقارئه كل عام . فأين كان أخواه ؟! وأين كان هذا الثبت الطويل من أسماء القضاة والعلماء والفقهاء الذين أحصى ياقوت منهم طرفا ولم يحص أطرافا ؟! هنا يصمت التاريخ ...

ولابد أن يكون لصمته سر فظيع في نشأة أبي العلاء الأولى ،